

قضية معنى المعنى أو التأويل وعلاقتها بالنثر الصوفي
The issue of meaning or interpretation and its relation to Sufi prose

الدكتورة: فتيحة حسيني
قسم اللغة والأدب العربي - جامعة حمّة لخضر- الوادي
fatiha-hacini@univ-eloued.dz

تاريخ القبول: 2019/09/30

تاريخ الإيداع: 2019/09/09

-

ملخص :

يعد التصوف تجربة روحية تتخطى حدود الزمان والمكان ، غايتها معرفة الحقيقة .
وتسير التجربة الصوفية في اتجاهين ، أحدهما ظاهري ، يتم إدراكه عن طريق الحواس ، والآخر
باطني يتحقق بالشعور، وذلك بتوجه المتصوّف إلى باطنه . لذا يعتبر التأويل من أهم الآليات
الإجرائية لفهم الخطاب النثري الصوفي .

وتعتبر قضية "معنى المعنى" من القضايا النقدية التعبيرية الناجعة التي استخدمت
معايير النقد القديم لتكشف عن مدى استجابة ذلك النثر الصوفي لتلك المعايير.

الكلمات المفتاحية: قضية؛ معنى المعنى؛ التأويل؛ نثر؛ صوفي.

Abstract :

Sufism is considered a spiritual experience which boundaries exceed the limits of time and space. It is concerned with reaching the truth. The sufistic experience is divided into two routes : an apparent route, which can be perceived by the senses; and an internal route, achieved by emotion through the orientation of the sufist inward. Therefore, the interpretation of the sufist prose is considered a most significant procedure as to understand it.
"The significance of the meaning" is considered one of the most useful expressively critical issues that used the standards of ancient criticism to discover the extent by which the sufistic prose respond to these standards.
Keywords: issue, the significance of the meaning, interpretation, prose, sufistic

1- قضية اللفظ والمعنى وعلاقتها بقضية معنى المعنى.

قضية اللفظ والمعنى من القضايا المهمة في تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إذ انشغل النقاد والبلاغيون العرب بها منذ أمد مبكر.

نشأت هذه القضية في أحضان فكر المتكلمين، حين راحوا يربطون بين قضية الإعجاز القرآني بالصياغة أحيانا، وبالمضمون أحيانا أخرى، حيث يقول حمادي صمود: "أقدم الآراء في الموضوع، تعود إلى رأس من رؤوس المعتزلة، إبراهيم بن سيار النظام ت 238هـ"¹.

لقد أثر الفكر الاعتزالي في بنية الثقافة العربية، عن طريق فكرتين وهما خلق القرآن وحرية الإرادة، ومع الاعتقاد أن القرآن مخلوق غير أزلي، أصبحت إعادة النظر في العلاقات بين اللغة والفكر ممكنة؛ حيث لا تتحد طبيعة الألفاظ وفق الاتساق والاستعمالات اللغوية الموروثة، بقدر ما تتحد خلال تشكيلها المعاني؛ مما يؤدي إلى اهتزاز فكرة ثبات اللغة بشكل كبير.²

كان النزاع محتدما بين النقاد و الجدل قائما حيث كان لارتباط النقد بمضامينه بوصفه عربيا إسلاميا محفز له في أي منهما تكمن أدبية النص هل في لفظه أم في معناه؟.

وكان من اللذين آثروا الشكل (اللفظ) على المعنى على أساس أن اللفظ هو الذي يخرج المعاني إلى العيان، فالمعاني كامنة في الصور، والألفاظ هي التي تخرجها إلى الوجود أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) الذي اقتبس من عبارات الجاحظ (ت 256 هـ) حين قال: "وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتراكيب، والخلو من أود النظم والتأليف"³ إن العسكري يذهب إلى صناعة الأدب، ويركز على الصياغة والأسلوب ويرى أن الأدباء لا يتفاضلون في إبراز المعاني.

كانت الأدبية في العمل الأدبي تردّ في الفكر النقدي العربي إلى عبقرية اللغة بوصفها مادة ثابتة ذات دلالات قائمة معلومة ومواصفات محددة وليس على الفرد⁴. وقد كان لانحراف الأدبية نحو شكل العمل الأدبي واضحاً لاسيما مع ظهور مذهب البديع.

ويرى ابن شرف القيرواني (ت 460هـ) أن المعاني هي الأرواح والألفاظ هي الأشباح، ويعد المعنى هو المطلوب حيث يقول: "وأن من الشعر ما يملأ لفظه المسامع، ويرد على السمع منه.... فلا ترعك سماحة مبناه، وانظر في سكناه من معناه، فإن كان في البيت ساكن فتلك المحاسن، وإن كان خاليا فاعدهه جسما باليا"⁵.

ومن اللذين يرون أنّ الأصل في العمل الأدبي هو المعنى ابن الأثير (ت 637هـ)، فقد تصوّر أنّ العرب كانت تهتم بالمعاني وتهذبها وإنّ الاهتمام بالألفاظ إنّما يدل على تقديرهم للمعاني، حيث يقول: "اعلم أنّ العرب كما كانت تُعنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها، فإن المعاني أقوى عندها وأكرم علمها وأشرف قدرا في نفوسهم، فأولى ذلك عنايتهم بألفاظها، لأنها لما كانت عنوان معانيها وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحوها وزينوها وبالعوا في تحسينها لتكون بذلك أوقع بها في النفس وأذهب بها في الدلالة على القصد"⁶.

الصواب عند ابن الأثير أن المعنى أعلى قدرا من اللفظ لأنه المخدم ولاشك أن المخدم أشرف من الخادم.

وإزاء هذا الفصل بين الشكل والمحتوى أي (اللفظ والمعنى) حاول بعض النقاد الجمع بين العنصرين، ويؤكد هذا الأمر الناقد عبد الكريم النيشلي (ت 403هـ) إذ يقول: "الكلام الجزل أغنى من المعاني اللطيفة عن الكلام الجزل"⁷. لخص عبد الكريم النيشلي رأيه في القضية، بأن الكلام الجزل هو الألفاظ المعبرة، فالنص يحتاج إلى ألفاظ مختارة قبل المعاني، لأن المعاني متضمنة في الألفاظ.

كما نجد ابن رشيق القيرواني (ت 456هـ) في مقولته المشبهة للمعنى واللفظ بالروح والجسد، حيث عالج من منظور نظري صلة العنصرين، التي تقوم على التسليم بالتأثر المتبادل، قوة وضعفا، فهما يؤسسان لتوأمين متلازمين للعمل الأدبي⁸، حين قال: "اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه، ويقوى بقوّته، فإذا سلم المعنى واختلّ بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض...فإن اختلّ

المعنى كله وفسد، بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه...وكذلك إن اختلّ اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له المعنى، لأنّا لا نجد روحا في غير جسم البتّة"⁹.

فإن المعاني لا يتفاضل فيها الأدباء، وإنما يتفاوتون في إبرازها وإجادة العبارات المعبرة عنها"¹⁰.

يقدم عبد القاهر الجرجاني (ت476هـ) تصحيحا للفهم السائد إذ لم يكن يرى الجمال في اللفظ دون المعنى ولا في المعنى دون اللفظ بل في التناهما ، ويتجسد ذلك في نظرية النظم والنظم عند الجرجاني يعتمد على مبادئ ، منها مبدأ التعلق بحسب قوانين النحو؛ حيث يقول: "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك"¹¹ فالعلاقة بين اللفظ والمعنى هي موطن البلاغة ولا يقوم البيان عنده باللفظ وحده حيث يقول: "ومن البين الجلي أن التباين في هذه الفضيلة، والتباعد عنها إلى ما يناقها من الرذيلة، ليس بمجرد اللفظ كيف ؟ والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب"¹²

فالألفاظ أوعية للمعاني وتابعة لها حيث يقول: "وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيه في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصدا حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك"¹³. فهو يرى أن اللفظ رمز لمعناه¹⁴ ، فالكلمة لا تتحدد قيمتها ببلاغتها فحسب، بل تتحدد من خلال ما ترمز إليه من أفكار أو تجارب أو عواطف أو معاني.

2 - مكانة المعاني في النظم

يرى عبد القاهر الجرجاني بأن مزية الكلام تعود إلى نظمه وسبيل المعاني النحوية سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش بفضل الإحياءات، كذلك النظم فهو يعبر بما فيه من مقومات متكاملة لشدة الصلة بين اللفظ والمعنى وحسن أداء الدلالة، ومن خاصية توخي معاني النحو أن تتحد أجزاء الكلام في بناء محكم لا اعوجاج فيه، حيث تربطه رابطة واحدة فيظهر فيه التناسق بين جميع عناصره، يقول عبد القاهر الجرجاني: "وهذا الحكم – أعني الاختصاص في الترتيب – يقع في الألفاظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس المنتظمة فيها على قضية العقل"¹⁵.

فلولا التناسق في الوصف لما كان هناك جمال المبني ولا حسن الصنعة ولا الابتكار في المعاني ولما كان هناك حسن النظم، فالمعاني تتأني بحسن توخي معاني النحو وأدائها للتصوير.

لقد اهتم عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم القائمة على حسن الصياغة وتوخي معاني النحو وينظر إلى العلاقة بين اللفظ والمعنى على أساس التآلف فقد عرف قيمة اللفظ في مبنى الكلام وعرف طريقة تصوير المعاني.

3- المعاني الثانوية وحسن الدلالة :

أولى عبد القاهر الجرجاني أهمية كبيرة للمعاني الثانوية ودلالاتها الجمالية في النص الأدبي حيث يقول: " الكلام على ضربين، ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت : خرج زيد وبالإطلاق عن عمرو فقلت : عمرو منطلق. وعلى هذا القياس. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن بذلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل"¹⁶.

ويقصد بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي يصل إليه بغير واسطة أو وسيلة أو بمعنى المعنى، وعلى المتلقي أن يفهم من اللفظ معنى معيناً ثم يفرض به ذلك المعنى إلى معنى آخر يعقله السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً وهو الغرض.

إنّ الارتباط شديد بين اللفظ والمعنى، وتقوم الألفاظ بدور مهم بكل ما تملك من مقومات خلال التعبير بدلالاتها لتؤدي دورها في خدمة المعنى الذي أراده صاحب النص، وقد يتعرض التركيب اللغوي إلى جملة فيصاحب المعنى ؛ فتظهر بصورة يختلف فيها اثنان في التأويل والتفسير والذي يطلبه عبد القاهر الجرجاني من الدلالة اللفظية أن تؤدي دورها في نقل الصورة السمعية إلى فكر السامع بقدر ما في نفس المتكلم من معاني مترتبة في ذاته فأى تغيير في بناء الدلالة يتبعه تغيير في الصورة.

ويرى عبد القاهر الجرجاني أنه بالإمكان نقل الكلام في معناه من صورة إلى صورة من غير أن يغير من لفظه شيئاً، وهو الذي وسّع مجال التأويل والنقد والتفسير حتى صاروا يتأولون في الكلام الواحد تأويلين.

فالنظم حسب الجرجاني يعطي إمكانات تعبيرية كبيرة للنص الأدبي من خلال خلق علاقات بين الكلم فهو يتيح تجديد المعنى، فالأدبية هي الصورة التي يخرج فيها المعنى.

إنَّ الثنائية التي تعامل بها النقد القديم مع اللفظ والمعنى لا تنطبق على النص الصوفي فهو ليس مجرد أداة تبليغ بل هو حالات نفسية وروحية فهو لا يرتدي كسوة خارجية لأنه كلام الباطن واللاشعور فهو وليد التجربة.

لقد توحد في النص الصوفي اللفظ والمعنى مثلما أراد الصوفي أن يتوحد مع الذات الإلهية ؛ ومن هنا يمكننا أن نستنتج أن التجربة الصوفية هي إبحار في المعنى لأنها تجربة صادرة عن الوجدان .

4- معنى المعنى عند الصوفية

تقدّم المعاجم العربية تعريفا للمعنى وهو: "الإرادة والقصد وأن المعنى والمقيس والتأويل واحد ومعنى الكلام المقصد"¹⁷.

وفي كتاب التعريفات التأويل في الأصل: "الترجيح، وفي الشرع صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا بالكتاب والسنة مثل قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (الروم 19) إن أراد إخراج الطير من البيضة كان تفسيراً، وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر والعالم من الجاهل كان تأويلاً"¹⁸.

ويعرفه عبد القاهر الجرجاني: "تأولت الشيء أنك تطلبت ما يؤول إليه من الحقيقة، أو الموضع الذي يؤول إليه من العقل، لأن أولت وتأولت فعلت وتفعلت من آل الأمر إلى كذا يؤول، إذا انتهى إليه والمآل المرجع"¹⁹.

والتأويل هو قراءة تفحص للنص وتأمل في أعطافه وثرائه؛ والتأويل عماده الثقة بمبنى النص وقدراته وهو أيضا حوار بين القارئ والنص، وهذا الحوار من شأنه أن يضيف للنص معنى ويعرفه مصطفى ناصف بأنه التوافق مع الحياة المتغيرة وهو عطاء لوجودنا وإثراء لماضينا وحاضرنا فالتأويل هو المعنى المستور الذي نحلم به ونشتاق إليه.

5- موضوعات النثر الصوفي وعلاقتها بمعنى المعنى

إن موضوع التصوف الذي نعثر عليه في نصوص المتصوفة هو الرغبة في اكتساب المتصوف صفات المحبوب وهو الله، فالمحب يترك صفاته بصفات المحبوب فيتركها ويخلص منها ويتلبس صفات الله وهذه العملية الاكتسابية هي موضوع التصوف، فلا يمكن للقارئ أن يصل إلى فهم

معاني المتصوفة بمعزل عن معرفة مفهوم التصوف وحقيقته عندهم وموضوعات التصوف التي تدور حولها نصوصهم وأفكارهم على مستوى التجربة وعلى مستوى اللغة.

يقول الغزالي: "فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالافتداء والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله"²⁰.
تخصّص الصوفية بالمعاني التي قد ترسّموا لها وفي ذلك يقول الطوسي: "إذ ليس لهم مطلوب ولا مقصود غير الله تبارك وتعالى ثم لهم آداب وأحوال شتى"²¹

إنّ النثر الصوفي من خلال موضوعاته هو فن التأمل في المطلق وهو يستعمل لغة مغايرة من أجل الخلاص، وهذه اللغة تحاكي الانفصال عن المجتمع والاتحاد بالذات الإلهية.

حقّق النثر الصوفي إنجازا هائلا وعرف قفزة نوعية حين تجاوز في طرحه المضمون التقليدي للفكر الديني إلى شكل أدبي يعبر بكل حرية وطلاقة عن حب الله ومعرفته وعن الذات والوجود، ولهذا فإن المعرفة الصوفية هي معرفة بالدرجة الأولى قلبية تعتمد على الحدس والإشراق والإلهام²².

ونظرا لكون هذه المعرفة لا تملك نهاية محدّدة لأنها خارج نطاق البشر، فقد اختلفت من صوفي لآخر نظرا لاختلاف التجربة الصوفية، ومن هنا استلزم الأمر إلى أدوات يخضعها الصوفي لمقاربة المعرفة التي توصّل إليها والتي تتمثل في الصورة والرمز والإشارة، لأن الوصول إلى الحقيقة وهي الكشف تتطلب لغة مختلفة عن لغة المنطق، فاتصال المتصوف بالغيب اتصال قلبي يتطلب صفاء القلب بتنزيهه عن صفات البشر وصفاء الروح والنفس فتتلقى الصور، فالمعرفة الحقيقية عندهم موطّأها القلب وليس العقل، قال الجنيد في المعرفة: "إن أول ما يحتاج إليه العبد من الحكمة: معرفة المصنوع صانعه، والمحدث كيف كان إحداثه، فيعرف صفة الخالق من المخلوق وصفة القديم من المحدث، ويدل لدعوته ويعترف بوجوب طاعته، فإنّ من لم يعرف ماله، لم يعترف بالملك لمن استوجبه"²³.

وكل من يقف على أقوالهم ويتأمل ألفاظهم يجد في مجموع أقوالهم بأنهم لم يقصروا على الحديث عن معرفة الله وتوحيده، ولذلك استعمل المتصوفة مجموعة من الألفاظ تدور بينهم حيث قصدوا من خلالها الكشف عن معانيهم لأنفسهم وتقريب الفهم على المخاطبين بها مثل الوقت - المقام - الفناء، البقاء - البسط، القبض - الهيبة، الأنا - الحضور*، الغيبة**²⁴، فشعارهم أن المعرفة ما وجدته والتحقيق بالمعرفة ما شهدته.

ومن أقوالهم في المعرفة ما ينقله النفري : " قال لي : العارف يعرف ويعرف، والواقف يعرف ولا يعرف "²⁵. إنّ النص النثري الصوفي هو الصوفي في حد ذاته لأنه ترجم روحه وعكس نفسه .

تجاوز النثر الصوفي اللغة العادية، واختلق لها طاقات تعبيرية كانت غائبة فكوّنت لها عالما مستقلا عن اللغة الأخرى وبذلك أصبحت تولّد أشكالاً متنوعة ومختلفة فانطلقت اللغة من مستوياتها العادية إلى مستويات أخرى كالرمز* والتأويل والشطح**.

يعدّ النثر الصوفي تجربة في الكتابة، متفردة في الرؤيا وفي طريقة التعبير لذلك يحتاج إلى معايير نقدية تبتعد به عن المعايير القديمة في قراءته.

لم تعد اللغة العادية قادرة على استيعاب التجربة الصوفيّة، ولا على صياغة أفكار وأحاسيس الصوفيّ الذي يتمنى معانقة المطلق، فاللغة عاجزة أمام التجربة الصوفية المتناهية في التجدد والتنوّع والاختلاف. طالما أنّ الصوفي في حالة كشف ²⁶.

هزّ النثر الصوفي سكونية الألفاظ الجاهزة المقولبة، فأحدث فيها رعشة ودهشة كالتّي يعانها الصوفي، ويحاول إيصالها إلى المخاطبين. ولقد أعلنت اللغة العادية فشلها حين عجزت عن احتواء التجربة الصوفية ونقلها للمخاطبين لذلك كانت هذه الأخيرة في حاجة إلى لغة مغايرة تستبطن المستتر، وهنا لجأ الصوفي إلى المعاني الثانوية (معنى المعنى).

يعود الفضل في تطوير مفهوم المعنى في الأدب والنقد إلى المتصوفة الذين عمدوا إلى إضفاء صبغة الحركية والتجدد عليه وفق تغيرات التجربة الصوفية ولذلك ربط مصطفى ناصف بين النقد والتصوف حين قال: "هل كان الجرجاني يدافع عن أبي حيّان التوحيدي ؟ لقد عكف الجرجاني في أسرار البلاغة يدافع عن الدهشة وكأنه يسبح في أفق صوفي "²⁷. والدهشة هي حالة نفسية يعيشها الصوفي، وهي : " التوتر الناشئ عن انفراد الله بمعلومه منك "²⁸.

نزع النثر الصوفي عنه رداء المنطق والترادف والمباشرة وارتدى لباس التوتر والدهشة ذلك أن التجربة الصوفية في عمقها معاناة ومكابدة من أجل الوصول إلى المكاشفة، ومن هنا تأتي الدلالات في علم الكشف لا حدود لها.

6- معنى المعنى لألفاظ النثر الصوفي

تأخذ ألفاظ الصوفية دلالات ثانوية تعبر عن عمق الإحساس وخصوصية التجربة ومنها على سبيل المثال لا الحصر ، لفظ الفناء:* يفسر بعض المتصوفة التصوف بالفناء حيث يستعملون ألفاظا دالة عليه، وإذا كان الفناء في اللغة هو الزوال والاضمحلال حسب قوله تعالى : ﴿ كُلُّ

مَنْ عَلَّمَهَا قَانٍ²⁹، إلا أَنَّ الصوفية تعني به فناء صفة العبد وبقاء صفة المعبود، وقد عبّروا عنها بألفاظ من عندهم، والفناء عندهم أيضا سقوط الأوصاف المذمومة والبقاء، بقاء الأوصاف المحمودة.

والفناء أيضا معناه فناء صفة النفس، وفناء المنع والاسترواح إلى حال وقع وأيضا هو: فناء رؤيا العبد في أفعاله لأفعاله بقيام الله له في ذلك³⁰

1-6 الثنائيات ومعنى المعنى

تعد الثنائيات سمة رئيسة في الفكر الصوفي وتتجلى في المتضادات وهي تعبّر عن الجدل الذي هو سمة هذا الفكر.

ويرجع منشأ هذه الثنائيات إلى طبيعة الوجود البشري الذي هو عبارة عن مجموعة متناقضات (الحياة، الموت)، (البداية، النهاية)، (الفرح، الحزن)، (الجسد، الروح).

ويلجأ الصوفي إلى هذا اللون من التعبير لإظهار معاني الشيء ونقيضه، وقد تمّ التعبير عن هذا الجدل وهذه الثنائيات بالطباق والجناس والاستعارة والتوليد، بحيث حققت هذه الثنائيات جماليات للنثر الصوفي في جمع المتناقضات وتقريب المتباعدات.

2-6 الطباق : ثنائية (البسط والقبض*)

يقول الجنيد: "الخوف من الله يقبضني، والرجاء منه يبسطني، والحقيقة تجمعني، والحق يفرقني، إذا قبضني بالحق أفناني عني، وإذا بسطني بالرجاء ردني عليّ، وإذا جمعني بالحقيقة أحضرني، وإذا فرّقني بالحق أشهدني غيري، فغطاني عنه، فهو تعالى في ذلك كله محركي غير ممسكي وموحشي غير مؤنسي، فأنا بحضور أذوق طعم وجودي، فليته أفناني عني فمتعني أو غيبي فرّوحي"³¹.

يلجأ الصوفية إلى استعمال البديع بألوانه ومنه الطباق لإحساسهم بعجز اللغة عن نقل حقيقة مشاعرهم، ونقل تجربتهم، لذلك يقول الجرجاني: "وأنت إن أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال وإنما تطلب المعنى، وإذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك وإزاء ناظر³²".

إن ثنائية البسط والقبض ولّدت عن طريق الطباق معاني الخوف والرجاء التي يعيشها الصوفي في حضرة الله، وكذا ولّدت معاني الجمع والفرق، وكلها حالات تتناوب على الصوفي فيعيشها ويتذوقها؛ فالرجاء يبسط إلى الطاعة، والخوف يقبض عن المعصية³³.

3-6 الاشتقاق :

تؤخذ الكلمات من بعضها البعض بفضل السياق في نثر المتصوفة، ومن ذلك قولهم :

" الشكر على الشكر أتم من الشكر، وذلك بأن ترى شكرك بتوفيقه، ويكون ذلك التوفيق من أجل النعم عليك، فتشكره على الشكر، ثم تشكره على شكر الشكر إلى ما لا يتناهى³⁴ .

إنّ معنى المعنى، وهو المعنى الخفي الذي قصد إليه الصوفية هو أنه سبحانه لما جعل لسان الصوفي شاكرًا لله على نعمه، فرأى الصوفي أن ذلك أكمل وأتم من الشكر لأن توفيق الله للإنسان وهديه لأن يشكره نعمة وبذلك يشكر الإنسان الله على نعمه ويشكره لأنه جعله شاكرًا. أراد المتصوفة من خلال الاشتقاق النحوي أن يرمزوا إلى تشابك الأضداد ونقض الوحدة والاتساق الباطني، فالإحساس عندهم ينافس التركيب بحيث تضيق العبارة.

4-6 الاستعارة :

يعدّ الخيال من أهم ركائز الاستعارة ، إذ يقدم له النقد مقاييس تساعد في صناعة المعاني وذلك عن طريق التشبيه بين المشهد الذي يعيشه الصوفي والإحساس الذي يختلجه. ويعبر المعنى عن لقاء العبد بربه على مستوى الفكرة، أما على مستوى الشكل فهو لقاء بين الواقع ولغة الصوفية. فالتأويل الذي يكون مصدره الخيال يظهر المعاني الخفية وراء الصورة الفنية.

ومن أمثله قول أبي عثمان : " من لم يذق وحشة الغفلة لم يجد طعم أنس الذكر"³⁵ . قدم هذا النص الصوفي معنى حلاوة أنس الذكر، ومرارة وحشة الغفلة، ومعنى الأنس عندهم هو : "الاعتماد عليه والاستعانة به"³⁶ . فمن خلال الاستعارة وكذلك من خلال المقابلة قرّب النص المعنى للمخاطب، فالنثر الصوفي هو في جوهره أدب معاني أكثر منه أدب ألفاظ، والقوة البيانية التي تتخلله هي قوة أفكار.

أبحر الصوفية عبر نصوصهم النثرية في بحر المعاني، إذ هي تتجدد لأن التجربة الصوفية في أصلها سباحة في التعبير عن المشهد، فمعنى المعنى ينتمي إلى الباطن ومن مرادفات الباطن التأويل³⁷ .

تختلف التجربة الصوفية باختلاف المتصوفة، ومن هنا يستعير المتصوف لغة تتناسب والمقام* الذي وصل إليه والتجربة التي يخوضها ويحتاج إلى لغة تعبر عن تلك الحالة. وإذا كان الفلاسفة يعتمدون على المنطق والعقل للوصول إلى الحقيقة، وعلماء الكلام يعتمدون على الجدل، والفقهاء يستندون إلى الظاهر النصي، فإن المتصوفة يتكئون في معرفتهم على القلب، لقد خلّص الصوفية مفهوم المعنى من الجمود وذلك عن طريق اكتشافهم لمناطق مجهولة للمعنى للوصول إلى معنى المعنى الذي لن يتأتى إلا بتحرر اللفظ.

ومما تقدم، يتضح أن النقد العربي القديم قد حكم على اللغة بأحادية المعنى، وأراد عبد القاهر الجرجاني إنقاذها من الترادف القديم من خلال التفاته إلى معنى المعنى، وبذلك استطاع النثر الصوفي الاستجابة لمقاييس النقد حين جاءت نصوصه تكشف عن طاقة اللغة في التعبير وتحررها، وبذلك اكتشف المتصوفة البعد التجديدي في اللغة فكانت نصوصهم شاهدة على هذا الاستيعاب من خلال جمال التصوير والجدة في الصورة البيانية والقدرة على إبراز المعنى.

لذا تعتبر قضية معنى المعنى من الآليات الإجرائية الهامة لفهم الخطاب النثري الصوفي وتأويله، التي يمكن لها أن تستفيد أيضا من الدراسات السيميائية وبخاصة في بعدها التأويلي وعلى الدراسات التأويلية بصفة عامة التي يمكن أن تفتح آفاقا أوسع لهذا النص.

¹ - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، المطبعة الرسمية، تونس، 1981، ص37.

² - مصطفى أبو شوارب، إشكالية الحداثة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط1، 2006، ص43.

³ - أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق وضبط مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2، 1989، ص 72.

⁴ - مصطفى أبو شوارب، إشكالية الحداثة، ص 46.

⁵ - أبو عبد الله محمد بن شرف القيرواني، أعلام الكلام، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1926، ص 27 – 28.

⁶ - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2، تحقيق بدوي طبانة وأحمد الحوفي، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر، ط2، د ت، ص65.

⁷ - عبد الكريم الهشلي، اختيار الممتع في علم الشعر ونقده، تحقيق محمود شاكر القطان، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1988، ص22.

⁸ - ينظر: عبد العزيز قلقيلة، النقد الأدبي في المغرب العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – مصر، ط2، 1988، ص367.

⁹ - أبو علي بن الحسن بن رشيقي القيرواني، كتاب العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، ج1، شرح وضبط نايف خاطوم، دار صادر، بيروت، ط1، 2003، ص111.

¹⁰ - ينظر بدوي طبانة، البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، دار المنارة والرفاعي للطباعة والنشر والتوزيع، ط 7، 1982، ص146.

¹¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق : محمد رضوان الداية وفايز الداية، دار الفكر، دمشق، ط1، 2007، ص101.

¹² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قراءة وتعليق محمد محمود شاكر، دار المدني – جدة، ط1، 1991، ص4.

¹³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص102

¹⁴ - مصطفى عبد الرحمان إبراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، 1998، ص199.

¹⁵ - الجرجاني، أسرار البلاغة، ص5.

¹⁶ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 268 .

¹⁷ - إسماعيل بن حمادة الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ج6، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، مطبعة دار الكتاب العربي، مصر، ص240.

¹⁸ - الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، ضبط وتعليق محمد علي أبو العباس، دار الطلائع، مصر، ط1، 2013، ص57

¹⁹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص98.

²⁰ - لطف الله خوجة، موضوع التصوف، صوفية حضرموت، أم القرى، مكة، 1432 هـ، ص41

²¹ - أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، حققه وقدم له وأخرج أحاديثه : عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة للطبع والنشر، مصر، 1968، ص29

الطوسي هو أعظم مؤرخ صوفي في التاريخ قديمه وحديثه وهو أكبر المؤلفين الصوفيين وأستاذهم. وله مدرسة بنيسبور، اتخذت من الكتب منابر لبيان دعوتها وشرح رسالتها ونشر أذواقها ومعارفها ومعارجها : ينظر ص 7

- ²² - وضحي يونس، القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري، موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الانترنت http://www.awwu_dam.org، ص57
- ²³ - أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمد بن الشريف، مطابع مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة، 1989، ص26.
- * الحضور: المراد منه حضور القلب بدلالة اليقين ، حتى يصير الحكم الغيبي له مثل الحكم العيني .
- ** الغيبة: المراد منها غيبة القلب عما دون الحق إلى حد أن يغيب عن نفسه ، فلا يرى نفسه.
- ²⁴ - ينظر المرجع نفسه، المقدمة.
- ²⁵ - محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري، كتاب المواقف والمخاطبات، صححه آرثيوجنا بريري، مكتبة المتنبي، القاهرة، ص14. ومن أقوالهم في المعرفة : (العلم حجابي، والمعرفة خطابي، والوقفة حظرتي) المرجع نفسه، ص15.
- * الرمز: يعبر الصوفي عن اللا محسوس ، فهو يخوض في عالم يصعب وصفه بلغة عادية ، فهو يحتاج إلى لغة خاصة تعادل التجربة الخاصة التي يعيشها ، مما جعله يلجأ إلى الرمز.
- ** الشطح : وهي في اصطلاحهم عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة ، كقول بعضهم أنا الحق وليس في الجبة إلا الله ونحو ذلك ...
- ²⁶ - ينظر: وضحي يونس، القضايا النقدية في النثر الصوفي، ص 55.
- الكشف هو المرحلة الثانية بعد المعرفة وتحقق المرحلة الكشفية بزوال الحجب بين الإنسان وربه بسبب الأدران، كالهوى والشيطان .
- ²⁷ - مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة، ع218، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997، ص106.
- ²⁸ - المرجع نفسه، ص 105.
- * الفناء : نقيض البقاء ، وهو فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب ، والتوكل عليه وعبادته ، وهو محض التوحيد والإخلاص .
- ²⁹ - سورة الرحمان، آية 26.
- ³⁰ - أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، ص417
- لقد عقد الطوسي بابا في شرح الألفاظ الجارية في كلام الصوفية : ينظر ص 409
- * البسط : هو النشر والقبض ضده ، ويريد الصوفية بالبسط غلبة الرجاء على القلب ، فإذا خاف الصوفي من وعيد الله كان قبضا .
- ³¹ - أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، ص137.
- ³² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 107.
- ³³ - أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، ص 420.
- ³⁴ - الرسالة القشيرية، ص 312.
- ³⁵ - أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، ص194.

³⁶ أبو سراج الطوسي، اللمع، ص 196.

³⁷ - وضحى يونس، القضايا النقدية في النثر الصوفي، ص 102.

* المقام : طريق موصل إلى الله، وتحصل المقامات ببذل المجهود ، وسمي المقام لثبوته واستقراره ، والمقام مثل : الورع والتوبة والزهد والرضا